Coptology

البشارة

بميــلاد الـــرب

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢٦

www.coptology.org

ΜΡ
ΘΥ

البشارة بميلاد الرب[١]

ميلاد المسيح له المجد من العذراء مريم، تمَّ بالروح القدس، دون أن يعين لنا الروح القدس تفاصيل ذلك السر الفائق. وقد سبق ميلاد المسيح المعجزي، ميلاد اسحق وميلاد يوحنا المعمدان، كنموذج للسر الآتي الكامل الذي أُعلن في العهد الجديد.

كان اسحق ابنًا لإبراهيم، ولكنه -حسب شرح الرسول بولس- لم يولَد "حسب الجسد". كان لإبراهيم ابنان؛ واحدٌ من الجارية، والآخر من الحرة، لكن الذي وِلِد من الجارية، وِلِد حسب الجسد، أما الذي من الحرة فبالموعد (غل ٤: ٢١). كان اسحق مولودا حسب الروح (غل ٤: ٢٩)، ولذلك كان ميلاده فوق الطبيعة. ويسجِّل الرسول بولس أن إبراهيم "كان ابن مائة سنة، وكان رحم سارة ميتًا"، ولكنَّ إيمَان ابراهيم كان إيمانا بالله "الذي يُحيي الموتى ويدعو الأشياء الغير الموجودة كأنها موجودة" (رومية ٤: ١٧ – ١٩). وكان ميلاد يوحنا المعمدان يشبه ميلاد اسحق تقريبا، فقد كانت أليصابات عاقرا مثل سارة (لو ١: ٦)، وكان زكريا شيخا متقدما في العمر مثل ابراهيم (لو ١: ٦). وهذه هي قوة الله الذي يفتتح العهد مع إبراهيم بولادة اسحق المعجزية، ويفتتح العهد الجديد معنا بولادة يوحنا المعمدان المعجزية، وكلاهما نموذج للحياة الآتية بقوة الله، وكلاهما يشير إلى ذلك الميلاد الفريد.

---

(١) رسالة عيد الميلاد المجيد عام ١٩٨٤ لأسرة القديس كيرلس عمود الدين الإكليريكية.

لكننا يجب أن ننتبه إلى أن اســـحق ويوحنا –كلاهما– لم يولدا من الروح القدس، ولا من عذراء. فالنموذج –مهما كانت قوته– يحمل ضـــعفات الخليقة، والإشـــارات والرموز ليســـت كاملة في ذاتها، وإلّا ما كانت الحاجة تدعو إلى مجيء الكامل.

لقد تمت الولادتان في إطار الزواج، ولكنهما في ذات الوقت عمل معجزيٌّ يوضّـــح أن الطبيعة الإنســـانية القادرة على الإنجاب من المســـتحيل عليها القيام بوظَيفتها في هذه الحالة. إنها معجزةٌ خلقٍ من العدم. وهذا ما يريد الرسول بولس أن يســـجّله. كان إبراهيم يؤمن بالله الذي يُحيي الموتى، ويدعو الأشـــياء غير الموجودة (العدم) إلى الوجود.

غير أن تكرار المعجزة يعني في النهاية أنها لم تثمر. ولكن في ميلاد المســـيح يظهر كمال المعجزة، لأنه هو الميلاد الخارج عن إطار الزواج تماما. فالأم عذراء "لم تعرف رجلاً" (لو ١: ٣٤)، والقوة الظاهرة بوضـــوح هنا هي الروح القدس الأقنوم الثالث من الثالوث. ولذلك، المعجزة الأخيرة فقط هي التي وهبت للإنســـانية الميلاد الجديد الآتي من الله.

لقد ولد آدم الجديد على خلاف الطبيعة.

وعندما يكتب القديس يوحنا الإنجيلي عن الميلاد الجديد، فالمعجزة الفريدة التي تكمن خلف هذه الكلمات هي معجزة ميلاد المسيح نفسه. يقول الرسول عن أبناء الله:

وكل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً ميلادا بقوة وتبني إلهي

أن يصيروا أبناء الله

الذين ولدوا ليس من دم ولادةً غير طبيعية

ولا من مشيئة جسد — ولادة ليست بإرادة مخلوقة

ولا من مشيئة رجل — ولادة ليست ثمر الزواج

(يو ١: ١٢-١٣).

وعندما حذف الرسول يوحنا: "الدم – الجسد – مشيئة الرجل" من موضوع التبني، فقد حذف كل ما يخص الطبيعة المخلوقة كمصدر للتبني. ولعلنا نرى الفرق الضخم بين "أعطاهم سلطانًا"، وبين "مشيئة رجل"، فهو فرقٌ بين سلطان الخالق وإرادة المخلوق. إنه ليس فرقًا في المصدر فقط، بل في النوعية أو الجوهر، وأخيرا هو فرقٌ في الغاية نفسها.

معجزة ميلاد المسيح تعطي لنا إنسانًا كاملًا، ولعل غاية المعجزات جميعا هو كمال الإنسانية. هكذا يقف التجسد كنقد إيجابي لمعنى المعجزة، لا لكي ينبهر بها الإنسان ويبقى في حالة الدهشة، بل لكي يعبر بها كيانه الإنساني إلى حاجة أفضل، وهل يمكن أن يكون لدى الإنسان ما هو أفضل من الإنسانية الجديدة الآتية من الله، المولود من الماء والروح أو المولودة من فوق في المعمودية؟

لقد حاربت الكنيسة بدعة رهيبة انتشرت في القرون الثلاثة الأولى، وعرفت باسم "الدوسيتيه" أو الخيالية أو المشبّهة[١]، وهي التي زعمت أن جسد المسيح مجرد خيال، أي أنه لم يكن جسدًا حقيقيًّا. ولكن قوة الإنجيل كانت كافية لأنْ تبدّد أوهام الهراطقة. إنها قوة "الكلمة صار جسدًا" (يو ١: ١٤). وبالتالي، فالمؤمنون يعرفون أن الإنسان في واقعه المؤلم إنما يحتاج إلى الفداء. ولو كان الخلاص روحيًّا بحتا قاصرا على الروح دون الجسد، لَما كانت هناك ضرورةٌ للتجسد. هذا الانحراف الدوسيتي ما زال قائما في مدارس فكرية شبه مسيحية تحاول أن تجعل الإيمان

(١) كتب ضدها القديس أغناطيوس الأنطاكي.

المسيحي فكرا فقط، أو حياةً فكريةَ لا علاقةَ لها بما يسمى بالمجال المادي.

وهكذا، الولادة من فوق لا يمكن أن تكون روحيةَ بحتة، لأن هذه هي الدوسيتية بعينها، ولكنها روحيةٌ جسديةٌ، لأن مثالها الواضح هو المسيح يسوع ربنا الذي صار بولادته "بكرا بين أخوة كثيرين" (رومية ٨: ٢٩).

وهنا يجب أن نفهم أن قوة المعجزة هي في استمرارها، فالمسيح ما يزال يقيم أبناء لله يولدون من فوق ميلادا مثل ميلاده، مع الفارق الضخم، وهو أنهم لا يولدون من العذراء، وإنما من "الماء والروح". ولا يولدون من ذات جوهر الآب، فهذا هو حق الأقنوم الثاني وحده، فهو الابن الوحيد للآب. **والفرق بين الجوهر والنعمة فرقٌ كبير، فالجوهر طبيعةٌ، بينما النعمةُ منحةٌ، والطبيعة لا تُوهَب بكاملها، كما أن المنحةَ مشروطةٌ، تتوقف على نوعية الحياة، وعلى قدر الاستيعاب والنمو، وقصد مانحها.**

وقد استقر في اللاهوت منذ زمن الآباء ضرورة توزيع صفات الله إلى قسمين:

- الصفات التي يمكن أن تشترك فيها الإنسانية مثل الحكمة وعدم الموت.
- والصفات التي لا يمكن أن تشترك فيها الإنسانية مثل الأزلية والقدرة والخلق ... الخ.

وهكذا يظل يسوع هو البكر، ونظل نحن أخوةً، لكن أُخوَّتَنا قاصرةٌ على عطية التبني، وليست على نوال الجوهر الإلهي.

نحتاج دائما إلى أن نتكلم إيجابيا عن العقيدة. ولذلك إذا سؤلنا: لماذا ولد المسيح من عذراء؟ فإن الإجابة السلبية: لكي لا يرث خطية آدم، إجابةٌ مضلّلةٌ. ولكن، كما نرى في الكتاب المقدس وفي التراث الروحي الشرقي، لقد ولد المسيحَ من

عذراء لكي يؤسّس بدايةً جديدةً للجنس البشري الذي يأخذ بدايته من الماء والروح، والذي لا يأخذ بدايته من القانون الطبيعي، قانون الولادة والانجاب.

وهكذا، بميلاد آدم الجديد، وهبت لنا الطبيعةَ التي لا تموت، وحياة عدم الموت. وكلُّ هذا إنما زرع بميلاده المعجزي، وارتوى بدمه، ونما بالقيامة، ويسلّم إلينا في المعمودية، ويدعَّم بالمسحة، ويعطى لنا كاملاً بالإفخارستيا.

فيا من ولدت من عذراء بالروح القدس، وأنعمت علينا بميلاد جديد. أنعم علينا أن نكون أهلاً لهذه الحياة الجديدة، واحفظنا في رتبة البنين، لأنك أنت الذي تقيم المسكين من التراب، وترفعه ليجلس مع الرؤساء والأرباب من الملائكة ورؤساء الملائكة.

عام سعيد

دكتور

جورج حبيب بباوي